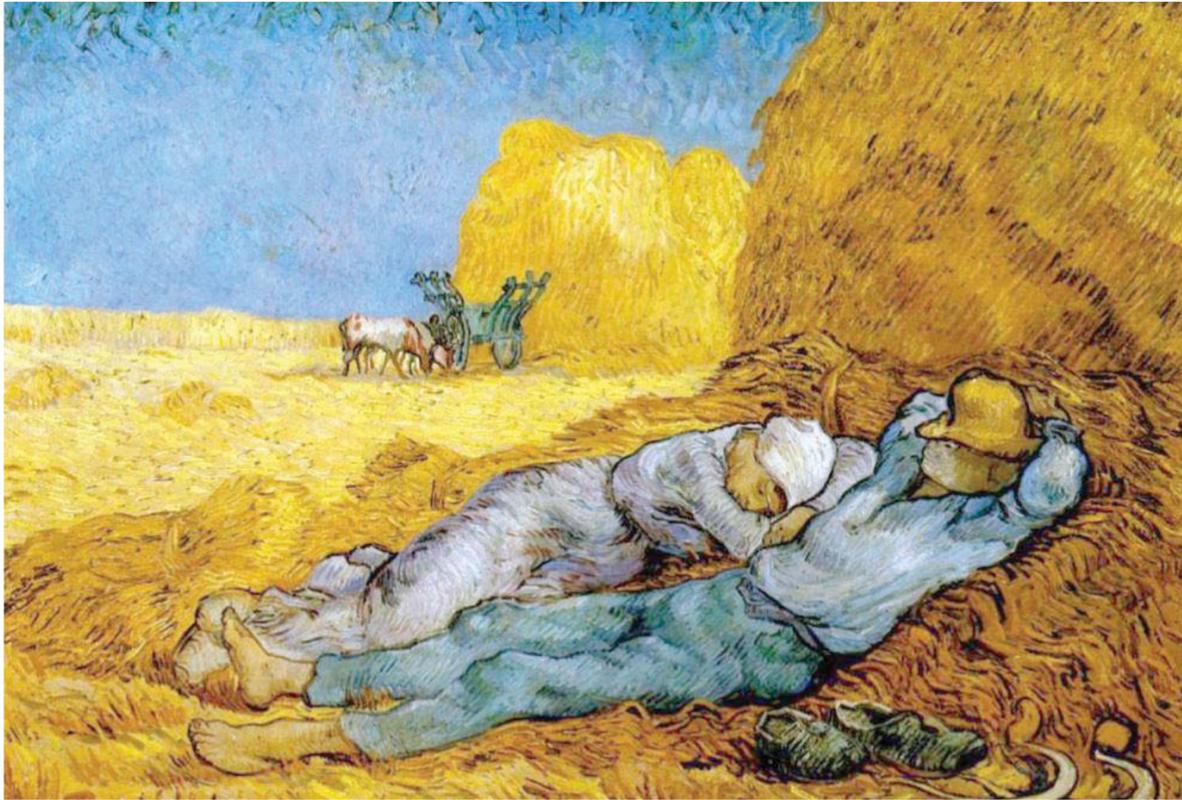


«الحق في الكسل» كتاب بول لافارغ المربك للعالم

البشرية تعيد قراءة صهر كارل ماركس الذي رثاه لينين



الكسل ضد التطرف في الاستغلال (فان غوغ)

لعقلية الكسل والاعتناء، لكن الموضوع أعقد من ذلك بكثير، ويتناول حقايا العقلية التي تزرع تقديس العمل لدى بسطاء الناس كمحاولة لإنقاذ أنفسهم وفرض السيطرة على بسطاء الفئات الإنتاجية نحو أقصى حد على حساب الطبقة العاملة مع إنهاك قواها وحرمانها من متع الحياة وأفراحها وتحولها دون شفقة ولا رحمة، إلى مجرد آلة للربح يستفيد منها فقط أصحاب رأس المال.

ويضحي صاحب «الحق في الكسل» بعيدا في تذوق الزمن، والاستمتاع به قطرة بعد قطرة في تصادم عنيف مع أصحاب الأيديولوجيات المناصرة لاستعباد الكائن البشري، والتعامل معه كآلة لا تكل ولا تمس، ولا نجد راحتها إلا في القبر.

في عالمنا العربي يحاول البعض من المزايديين الادعاء بأنهم يقدسون العمل وفق النموذج الألماني أو الياباني دون أن ينتبهوا إلى خطورة ما يدعون إليه وسط تركيبة اجتماعية تتميز بالركون إلى الروحانيات ومغازلة الطمانينة الأدبية في دعة وسكون كما هو الشأن في لوحة الفنان الهولندي الشهير فان كوخ، المسماة بـ«الكسل»، والتي نشاهد فيها استرخاء الكائن البشري على طريقته اللقطة، بينما تقف حيوانات في الخلفية على قوائمها الأربع وسط مرج أصفر على الطريقة الفانتوخية، لا يوحى إلا بالقلق والتردد.

وفي هذا الصدد، يقول الباحث محمد أشرف، في قراءة ومقارنة معمقة بين لافارغ، وعالمنا العربي «يعد الكسل من المحظورات في عالمنا الاجتماعي، الكسل رمز وفسي للتعاسة يحتاج يد المساعدة لانتقاله من الضياع، يكفي أن تقول: أفضل ألا أفعل... ويستطرد أشرف قائلا: «وقبل أن تكمل الجملة ستحاصر من أمثال ستولتز صديق إيليا إيليتش أو بلوموف الشخصية الرئيسية في رواية أو بلوموف، للكاتب الروسي إيفان غونتشاروف، إذ حاول بمختلف الطرق إنقاذ من طريق الضلال هذا بأن أصبح مثله بعقلية ألمانية تقدر العمل وترفض بشكل قاطع مظاهر الكسل».

ويختتم الباحث قراءته النقدية لكتاب «الحق في الكسل» بقوله «يبدو أن الغيمة التي تغطي العالم الآن فرضت العودة إلى كتابات لافارغ لإزالة الطابع البيهيمي لتقديس العمل، والتوقف عن المطالبة بالحقوق بركب العالم، واستدراك الفرص، مضيفا «أن الأوان لإلقاء اللافتات المطالبة بالحق في العمل في أقرب سلة مهملات وكتابة أخرى جديدة رافعة شعار المساواة في الكسل والعمل دون تمييز اجتماعي».

أكثر من وجه

المسألة قد تبدو مخوفة بالمخاطر وتجر إلى منزلقات كثيرة منها تقديس الكسل ونيل العمل، وذلك على خلفية خنوع الإنسان بطبعه في عالمنا العربي

وأضاف الباحث التونسي إنه «يجب كذلك التقليل من الزمن المدرسي وترسيخ مفهوم المدرسة الصديقة عن طريق التخفيض من ساعات التعلم وإحداث نوايا وورشات فاعلة صلب المؤسسات التربوية لتساهم في صقل المهارات الحياتية للناشئة خاصة في السنوات الأولى من العمر».



بول لافارغ

كونوا كسالى لتكونوا أنتم كثر أنفسكم الوحيد

شيشرون
العمل مقابل المال ينزل بالفرد إلى مرتبة العبيد

بول لافارغ
كونوا كسالى لتكونوا أنتم كثر أنفسكم
فلست مجرد قيمة مضافة

هذا التصريح يتفق مع ما ذهب إليه لافارغ، منذ ما يقارب القرن ونصف القرن من الزمن، فكان كتاب «الحق في الكسل» يندرج في سياقه التاريخي ضمن نضالات سياسية مريرة، انتهت بإقرار قانون عطل نهاية الأسبوع المدفوع الأجر، والعطل السنوية والوطنية، وإقرار حق عطلة المرض والتطبيب المدفوع الأجر، وتقليص ساعات أوقات العمل اليومي، وحق الرفاه ووسائل الراحة في التنقل والسفر على جميع فئات المجتمع.

«كونوا كسالى واستغلوا كل دقيقة من وجودكم لتكونوا أنتم كثر أنفسكم الوحيد... ما أعققت هذه المقولة التي تقترب من الشعر في كتاب صهر كارل ماركس، ذي المزاج الفرنسي الذي لم تؤثر فيه الصرامة الألمانية. ويذكر بشعار مارتن لوثر كينغ «كن سيد نفسك فلست قيمة مضافة».

البعد الإنساني هو الذي اكتسب الكتاب قيمته المعرفية، وجعله محط أنظار العديد من الدارسين، لأنه لم يجدد العمل على غرار تلك الكتب الحمراء التي تقدر قيمة العمل ضمن منشورات دار التقدم السوفييتية السابقة، ولا مساندا لمقولات ثورية تسوق لها أنظمة شمولية على شاكلة كوريا الشمالية، لكن الكتاب وقفة تأمل، في صياغة أقرب إلى الشعرية، من مفكر اقترب من روح كارل ماركس الفيلسوف وليس المنظر الأيديولوجي.

أحب المتحمسون كتابا على غرار «العمل» و«خطواتي إلى الأمام خطوة إلى الوراء» للزعيم الروسي لينين، أو كتابات وكراسات ماو تسي تونغ، وهوشي منه، كيمييل سونغ، لكنهم لم يتوقفوا عند «الحق في الكسل»، لأن العامة تتعلق بالشعارات، ولا تنتبه إلى من يدعوها إلى التعلل والتفكير برأس باردة وقلب دافئ. يستنجد لافارغ، وبعبقرية قل نظيرها -

العمل في نظر لافارغ، يصبح مرضا عضالا، في حالة الإدمان عليه، ويصبح مصدر تعطيل للإنتاج والإنتاجية بدل أن يكون محفزا، ذلك أن النفوس تقطع ساعة بعد ساعة، فكان من الواجب إراحتها كما ورد في الأثر العربي.

كلنا نرى الآثار السلبية التي يتركها الإدمان على العمل في المجتمعات التي تحكمها أنظمة رأسمالية أو اشتراكية على حد سواء، وذلك إن كان بالتعبئة العقائدية والأيديولوجية كما تفعل المنظومات الشمولية أو بالإغراءات المالية كما هو الشأن بالنسبة إلى الدول الرأسمالية التي ترفع العمل إلى درجة التقديس.

قدساء اليونان كان لهم وجهة نظر قد تؤخذ بعين الاعتبار، حسب رأي الكاتب، فعلى الرغم من التركيبة الطبقة للمجتمع، فإن الإغريق اعتبروا العمل أمرا يخص العبيد والفئات المستضعفة، وقال هؤلاء بإعلاء شأن التفكير وفنون القول والرسم والنحت، معتبرين ذلك من هبات الآلهة، بينما ازدرى الكثير منهم العمل العسلي واعتبروه ضربا من الشقاء المجاني إن لم تكن نضاجه غاية سامية وراقية.

طبعاً لا يمكن لرجل تزوج ابنة كارل ماركس، أن يحط من شأن العمل كقيمة مضافة تقدر بالمال وتساهم في تطوير المجتمعات ورفقها، لكنه بلغت الانتباه في هذا الكتاب الإشكالي، إلى أن العمل كحالة شقاء فردي وجماعي ليس غاية من نضالات الطبقة الكادحة، بل على الأخيرة أن تنطلق إلى أن الراحة تصنع التقدم والرفاهية وليس عبادة العمل لأجل العمل.

ولا يتوانى لافارغ، من استعداد الأمثلة والنماذج من الحضارة اليونانية مستشهدا بمقولة شيشرون «المواطن الذي يكرس ماهية وجوده بالعمل مقابل مال يحط نفسه إلى رتبة العبيد».

كونوا كسالى

بول لافارغ، لا يمزح كما يخطر في بال البعض بل ينبه إلى أن «الكسل يمكن أن يصلح شعارا ضد تطرف الاستغلال» ذلك أن الفئات المهيمنة والمتحكمة في رأس المال، يمكن أن تجعل من العمل عقيدة مقدسة في أذهان البسطاء من البروليتاريا الرثة، وتلهيهم عن قضايا أساسية وجهرية صلب الكائن البشري كتربية الأطفال والعناية بأشياء ذات قيمة جمالية وحياتية.

وفي هذا الصدد فسّر الباحث التونسي، وخبير التربية والأسرة إبراهيم ريجاني، مفهوم الرفاه الاجتماعي، بالعمل على ترسيخ دور الأسرة والمدرسة في التنشئة السليمة، من خلال تقليل ساعات العمل حتى يتسنى للوالدين الاهتمام بأبنائهم بعيدا عن الضغوط الاقتصادية والاجتماعية، ولتكون بذلك العائلة أولى آليات إصلاح منظومة الطفولة.

كتاب «الحق في الكسل» للعبقري الفرنسي بول لافارغ أشبه بمكعب يقرأ على أكثر من وجهة وجانب. ونحن نحتاج إلى مراجعته الآن في ظل تنامي الكسل الذي يضمن للأخريين المزيد من الربح. والريح الوفير يحقق المزيد من الكسل لأصحابه. إنها متاهة يثيرها زوج لورا ماركس عن حق الكسل.

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي



وتشبه تلك القصيدة التي قالها المصري أحمد شوقي، الملقب بأمير الشعراء، والتي تحت على بذل المزيد من الجهد والتفاني في خدمة الصناعيين والإقطاعيين في عشرينيات القرن الماضي «أيها العمال افنوا العمر كذا واكتسبوا»، واعترضوا الأرض فلولا سعيكم أمست بيابا، إن لي نصحا بالكم إن أدنتم وعتابا/ في زمان غيبي الناصح فيه أو تغابى/ أين أنتم من جدود خلدوا هذا التراب/ قلدوه الأثر المعجز والفن العجبا».

هذه القصيدة، مثلا، والتي كانت مبرجة في المقررات الدراسية بالتعليم الثانوي التونسي في سبعينات القرن الماضي، كانت المنظمة النقابية التونسية المعروفة بـ«الاتحاد العام التونسي للشغل» قد تدخلت، وبكل نقلا - لإلغائها ومحوها من الكتب المدرسية مع غيرها من النصوص التي تنتقد العمال، وحتى تكاسل البعض منهم.

كتاب «الحق في الكسل»، جاء في هذا الإطار الذي يدافع فيه الكاتب عن حق العمال المشروع في أيام الراحة والعطل والأعياد، في التمتع بنوع من «الكسل المحمود» وليس بالمفهوم الأخلاقي السائد.

رذ ثوري

لا شك أن لافارغ، قد ألبس كتابه عنوانا مثيرا وسريع التعلق بالذهن والذاكرة، لكنه لا يقصد بالتأكيد، ذلك الكسل الذي تنتقده جميع الفئات الاجتماعية والمنظومات الأخلاقية، وتعتبره عائقا أمام التنمية والتطور.

الكتاب في حقيقة الأمر هو عبارة عن رذ ثوري يرتبط بنظريته الزمنية والمكاني، على معرقل المطالبة بإصلاحات اجتماعية واقتصادية وسياسية لحقوق العمال، في أوج التصادم الفكري الليبرالي/الاشتراكي، الذي تجلى في محيط لافارغ، بالمطالبة بحق العطلة وعطل نهاية الأسبوع وتقليص عدد ساعات العمل وغيرها من الحقوق الأساسية للعمال والمواطن في خضم ظهور البروليتاريا، مع تطور النهضة الصناعية الأوروبية وعصر الآلة، كما ورد في المراجع والمصادر التي تخص ذلك العصر.

ويرى المناضل اليساري الفرنسي المثير للجدل، أن «الكسل» مصدر مهم للتقدم البشري، وذلك على اعتبار أن الكائن البشري يستحق هذه الراحة التي لا بد منها كشرط أساسي للإبداع، ذلك أن الإنسان الذي لا يتمتع بقدرة كاف من الراحة، لا يمكن له أن يبدع ويتقدم ضمن خطط إنتاجية تعول عليها الدول والمجتمعات.

رمية دون رام

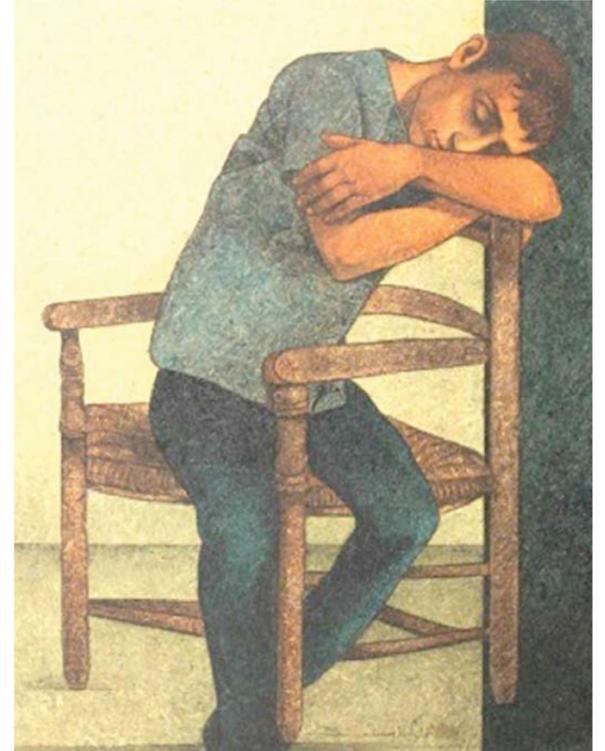
ظل الكتاب الذي ألفه صهر ماركس، سنة 1880 يتردد على الساحة الفكرية الأوروبية لما يزيد على قرن من الزمن، تحت عنوان غريب المحتوى ومثير للجدل الفكري والحقوقي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي بشكل عام. أصبح العنوان مجالا للتندر ورواية النكت والطرائف لمن لم يقرأه، وأمسى حجة وأهمية لمن يريد الدفاع عن الكسل، ويبرر عدم قدرته على المبادرة، لكن مضمونه يشي بحقائق واعترافات وتحليلات قل مثيلها.

لم يكن الكتاب بمثابة «رمية دون رام» بل جاء رداً سجاليا على لويس بلان الاقتصادي الاشتراكي الإصلاحى مؤلف كتاب «الحق في العمل».

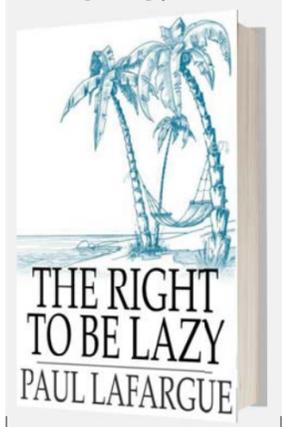
لم يكن لافارغ، يمزح في هذا الصدد، وجاء مؤلفه في إطار غضبه اللاذع على أولئك الذين يدجون الطبقة العاملة بشتى أنواع التسليح والتقوية على نظرائهم المستضعفين والإيحاء إليهم بأن قدروهم العمل.. ولا شيء غير العمل.

العمل في نظر لافارغ، يصبح مرضا عضالا، ويصبح مصدر تعطيل للإنتاج والإنتاجية

هذه البرجة الأيديولوجية الهادفة إلى الرفق من مردودية العمل والإنتاج إلى الحد الأقصى، لصالح الطبقة المسيطرة، مقابل إنهاك قواها الحيوية وحرمانها من كل متع الحياة وأفراحها دون شفقة ولا رحمة، بنظرة ربحية صرفة، تهدف إلى «أن تجعل من العامل مجرد آلة منتجة تجرده من إنسانيته لمراكمة الخيرات والمناافع حتى تستمتع بها الطبقة الرأسمالية وحدها دون غيرها» كما يرى المحللون،



الراحة شرطا أساسيا للإبداع (لوي كيالي)



ثمة أكثر من سبب وجيه يدعونا هذه الأيام، إلى قراءة لافارغ، وتتمين كتابه «الحق في الكسل»، أول هذه الأسباب وأخرها هو أن العمل لم يعد موجودا أصلا كي نقده أو نذريه، خصوصا وسط هذه الجائحة التي لم تشجع إلا على تجارة النوابيت واللقاحات، والتسوق عبر عمالقة سمسرة الإنترنت، ثم إن الحق في الكسل صار متاحا للجميع، ولكن أين الحق في العمل؟ ومن طريف المفارقات أن هذا الكاتب والصحافي والفيلسوف الماركسي، الذي رثاه لينين أبغ رثاء، اختار أن ينتحر وزوجته، حتى لا يعيشا أرذل العمر «عندما يتخلى عنا جسدنا، ويتركنا وحدنا لمصيرنا» كما ورد في رسالتهما.